مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا المجلد 08 العدد 03 جوان 2025 ص ص168ـ188
ر س ع و (ISSN): 2602ـX618 / ر س ع و إ (E-ISSN): 2710ـ8031

مقاومة أولاد سيدي الشيخ الغرابة للاحتلال الفرنسي (1845–1883م)

The resistance of Western sons's Sidi Sheikh to the French occupation (1845-1883

عبد العزيز بالحيا♦
المركز الجامعي صالحي أحمد النعامة ، abdelaziz.198332@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2025/02/10 تاريخ القبول: 2025/06/13 تاريخ النشر: 2025/06/30

الملخص باللغة العربية:

قاد زعماء القبائل حركة الجهاد والمقاومة ضد الاستعمار الفرنسي منذ أن وطئت أقدامه أرض الجزائر. ومن أبرز القبائل التي تصدت لتوسُّع الاستعمار في الجنوب الوهراني قبيلة أولاد سيدي الشيخ ، التي لعبت دورًا بارزًا في إبطاء زحف القوات الفرنسية نحو الجنوب. وقد تمثلت هذه المقاومة في نضال أولاد سيدي الشيخ الشراقة ومقاومة الشيخ بوعمامة ، إلى جانب مقاومة أخرى أقل شهرة ولم تحظَ باهتمام كافٍ في الدراسات التاريخية ، وهي مقاومة أولاد سيدي الشيخ الغرابة ، التي انطلقت بقيادة الشيخ بن الطيب عام 1845م ، عندما تصدى للحملة الفرنسية التي كانت تهدف إلى استكشاف المنطقة استعدادًا لاحتلالها.

يركّز هذا المقال على دراسة الظروف العامة التي عاشتها منطقة الجنوب الوهراني قبل وأثناء مقاومة أولاد سيدي الشيخ الغرابة ، مع تسليط الضوء على أهم المراحل التي مرت بها هذه المقاومة ، وكذلك كيفية تعاملها مع معاهدة لالة مغنية التي صنّفتهم ضمن رعايا المغرب.

كما تشير الدراسة إلى الدور الذي لعبه أولاد سيدي الشيخ الغرابة من خلال استغلال سلطتهم الروحية لتعبئة قبائل الجنوب الوهراني وقيادتها في مقاومة الاستعمار الفرنسي ، كما أنهم استفادوا من بعض بنود معاهدة لالة مغنية لصالحهم ، حيث مكنهم ذلك من التحرك ضمن المجال الصحراوي الممتد بين الجزائر والمغرب الأقصى ، رغم أن المعاهدة كانت تهدف في الأساس إلى الحد من نشاطهم ،واستمرت هذه المقاومة لفترة طويلة رغم مرورها بفترات من الهدوء والفتور نتيجة التطورات والمتغيرات التي شهدتها المنطقة ، كما عرفت تعددًا في قادتها وتأثرت بالظروف العامة للجنوب الغربي من الجزائر.

الكلمات المفتاحية: أولاد سيدي الشيخ الغرابة ؛ المقاومة ؛ الجهاد ؛ الجنوب الوهراني ؛ فرنسا.

♦ **المؤلف المرسل**

Abstract: The article deals with the resistance of the Ouled Sidi Sheikh Al-Gharabaagainst the French occupation between 1845 and 1883 AD, highlighting the role of Sufi orders, especially the Sheikhiorder, in resisting French colonialism in southern Oran. The researchfocused on the resistance of Sheikh Ben Tayeb, whichbeganin 1845 AD against the French campaignthatwasseeking to explore the region in preparation for its occupation.

The article reviewed the general conditions of southern Oran before and during the resistance, and explained how the Ouled Sidi Sheikh Al-Gharabadealtwith the Treaty of LallaMaghnia (1845 AD), whichclassifiedthem as subjects of Morocco, whichenabledthem to move freelybetweenAlgeria and Morocco and exploit some of the provisions of the treaty to theiradvantage, although the treatyaimed to limittheiractivity.

The studyconcludedthat the sons of Sidi Sheikh Al-Gharabasucceeded in mobilizing the tribes of southern Oran against the French thanks to their spiritual status, and theirresistancecontinued for a long time despiteperiods of calm and stagnation due to politicaldevelopments in the region, and their leadership variedaccording to changingcircumstances.

Keywords: Sidi Sheikh Al-Gharba'schildren; Resistance; Jihad; South Alhorne; France.

مقدمة:

أسهم رجال الزوايا والطرق الصوفية وزعماء القبائل في التصدي للعدوان الفرنسي خلال القرن 19م في إطار ما يعرف بالمقاومات الشعبية ، ومن أشهر القبائل التي قادت حركة الجهاد ضد فرنسا قبيلة أولاد سيدي الشيخ ، حيث أعلن زعماءها الثورة والمقاومة ، التي عرفت مرحلتين ؛ الأولى بقيادة أولاد حمزة من 1864م إلى 1883م وهي مقاومة أولاد سيدي الشيخ الشراقة ،والثانية بزعامة الشيخ بوعمامة(1881-1908م).

إلا أنه توجد مقاومة أخرى لم تَنَل نصيبها من الدراسة والبحث ، فالحديث عنها جاء من طرف المؤرخين والدارسين في ثنايا الكتب والمقالات التي تناولت ثورة الفرع الشرقي للقبيلة ، ونقصد بها هنا مقاومة أولاد سيدي الشيخ الغرابة التي تزعمها الشيخ بن الطيب وأولاده ، والتي تعد أولى المقاومات في منطقة الجنوب الغربي الجزائري ، حيث كانت شرارتها الأولى سنة 1845م واستمرت إلى غاية سنة 1883م ، لكنها عرفت بعض الفتور والتوقف الظرفي الذي أملته الظروف العامة للبلاد. لذا حاولنا تسليط الضوء على هذه المقاومة وخصصناها بدراسة منفصلة عن مقاومة أولاد سيدي الشيخ الشراقة من أجل إبراز

الدور الذي لعبه الغرابة في التصدي للعدوان الفرنسي من جهة ، وتعاملهم مع معاهدة لالة مغنية التي حدت من نشاطهم واعتبرتهم رعايا مغاربة من جهة أخرى.

فهل كانت مقاومتهم استجابة لما آلت إليه أوضاع المنطقة في النصف الثاني من القرن 19م ؟ أم ضرورة حتمية فرضها واجب الجهاد والدفاع عن الممتلكات والبلاد ؟

سنحاول في هذه الورقة البحثية تبيان جوانب عديدة من مقاومة أولاد سيدي الشيخ الغرابة من خلال رصد لأهم الحملات العسكرية الفرنسية لاحتلال المنطقة ، وتتبع مراحل هذه المقاومة وأهم المعارك التي خاضها قادتها ضد القوات الفرنسية ، معتمدين على المنهج التاريخي وعلى ما بحوزتنا من مصادر ومراجع.

1- بداية الاحتلال الفرنسي للجنوب الوهراني:

بعد احتلال فرنسا لسواحل الغرب الجزائري 1831م أرادت التوغل في المناطق الداخلية ، لكنها اصطدمت بمقاومة الأمير عبد القادر (1882-1847م) الذي وقف حاجزا منيعا أمام أطماعها ، وأبطأ تحركاتها نحو الجنوب الغربي الذي كان بمثابة الحلم للفرنسيين. لأنه يعتبر البوابة الأساسية لاحتلال الجنوب الكبير والتوغل في قارة إفريقيا.

وقبل نهاية مقاومة الأمير وتوقيعه على معاهدة الاستسلام يوم 23 ديسمبر 1847م ، حاولت فرنسا التوجه إلى منطقة الجنوب الغربي الجزائري ، أو ما أطلق عليه حينها بالجنوب الوهراني بغية التعرف على المنطقة وخصوصياتها تمهيدا لاحتلالها ، فأرسلت العديد من البعثات الاستكشافية للصدد ذاته. والتي كان الهدف منها ؛ دراسة المنطقة والتعرف على تركيبة سكانها ونمط معيشتهم وتعدادهم ، وطبيعة تضاريس المنطقة وطرقها ومنابع مياهها ومحاصيلها. فأوكلت سلطات الاحتلال المهمة إلى ضباط سامين في الجيش الفرنسي[1] وزودتهم بكل ما يحتاجون إليه لإنجاز مهمتهم على أحسن وجه. كما استعانت بالعديد من الباحثين والمغامرين ورجال الدين والأدباء والأنثروبولوجيين وغيرهم من المهتمين الذين أعدوا تقارير هامة ، ساهمت في التعرف على خصوصيات المنطقة وساعدت ضباط الجيش الفرنسي في احتلالها.

وفي هذا الصدد قامت فرنسا بإرسال العديد من البعثات الاستكشافية للصحراء الجزائرية وقد كان يشرف عليها قادة عسكريون متمرسون لديهم خبرة كبيرة في مثل هذه المهمات ، تم توفير الحماية العسكرية لهم كما زُوّدوا بالسلاح والذخيرة وكل ما يحتاجونه ، حتى يتمكنوا من إنجاز مهماتهم على أكمل وجه ، وفي الكثير من الأحيان كانت هذه

1- عيسى روشام ، مقاومة قصور الجنوب الوهراني من الشيخ بن الطيب إلى محمد ولد علي قائد مقاومة بني سمير(1849-1900) ، منشورات دار الأديب ، الجزائر ، 2018 ، ص21.

الرحلات الاستكشافية مَبْعُوثَة ومُمَوَّنَة من طرف جهات رسمية عُليا في الحكومة الفرنسية كالحاكم العام الفرنسي في الجزائر ، أو وزارة الأشغال العموميةبباريس[2].

1.1- طابور الرائد جيري(Géry):

بدأ قائد إقليم وهران الجنيرال دو لاموريسير (Dela moriciére) في التحرك من أجل احتلال الجنوب الغربي لمنطقته فأرسل عدة طوابير عسكرية لاكتشاف المنطقة تمهيدا لإخضاعها ، ويتعلق الأمر بطابور الرائد جيري (Géry) الذي انطلق من مدينة معسكر في 18أفريل 1845م متجها نحو منطقة البيّض وما جاورها ، كانت فرقة جيري مكونة من مئة وخمسين فارسا (150) وألفَيْ رجل من المشاة (2000)[3]، وصلت قصر سْتِيتَن[4] أواخر شهر أفريل فخضعت لها قبائل الدَرَّاقَة ، وأولاد عبد الكريم ، وعْكُرمَة ، خوفا من بطش الجيش الفرنسي المعزّز بترسانة عسكرية حديثة ، ومن سْتِيتَن واصل جيري تقدمه نحو بقية القصور فزحف على قصري الغَاسُول وبْرِيزِينَة[5] فهدم أسوارهما ونهب أملاكهما وأحدث فيهما خرابا كبيرا ، وقد كان سكان هذه القصور والبوادي المجاورة لها يدينون بالطاعة والولاء لأولاد سيدي الشيخ الذين تصدّوا لحملة جيري من خلال بعض الاشتباكات[6] ، وفي 17 ماي 1845م عادت قوات جيري إلى المناطق التلّية حيث وصلت مدينة معسكر بعد حوالي شهر من انطلاقتها.

2.1- طابورالجينيرال كافينياك(Cavaignac)[7]:

2- جمال حريشة وعلي طالبي ، الصحراء الجزائرية في كتابات البعثات الفرنسية بعثة أوجين كافينياك (1847-1848) أنموذجا ، مجلة الساورة للدراسات الإنسانية والاجتماعية ، جامعة بشار ، الجزائر ،مج9، ع2 ، 2023 ، ص9.

3- عبد القادر بوطاجين ، التحولات السياسية والعسكرية ، جنوب الشط الشرقي وجبال القصور ، 1518-1830 ، ط1 ، دار صبحي للطباعة والنشر والتوزيع ، غرداية ، الجزائر ، 2022 ، ص47.

4- سْتِيتَن: قصر قديم يبعد شرقا عن مدينة البيض الحالية حوالي 23 كلم ، كانت تقطنه مجموعة مختلطة من القبائل ذات الأصول العربية دخلت ضمن كونفدرالية الأغواط كسال. ينظر: خليفة بن عمارة ، تاريخ الجنوب الغربي الجزائري الأعلى ، تر ، بوداود عمير ، دار القدس العربي ، وهران ، 2013 ، ص155.

5- الغاسول: قصر قديم يقع حوالي 45 كلم جنوب مدينة البيض الحالية ، أما بريزينة فتبعد حوالي 83 كلم جنوب مدينة البيض وهي عبارة عن قصر قديم تزينه واحة من النخيل. ينظر: خليفة بن عمارة ، المرجع السابق ، ص ص150-153.

6- عبد القادر بوطاجين ، المرجع السابق ، ص49.

7- كافينياك (1802-1857): جنيرال ورجل سياسة فرنسي ، شارك في حرب احتلال الجزائر ، ارتكب جرائم إنسانية ضد قبيلة بني صبيح ، كما شارك في العديد من المعارك في الجزائر. ينظر: محمد بن

أمّا الطابور الثاني فكان تحت قيادة الجنيرال لويس أوجين كافينياك (Cavaignac) قائد قسم تلمسان. الذي تحرك من مقر إقامته قاصدا منطقة قصور الجنوب الغربي للجزائر التي وصل أول قصورها يوم 21 أفريل 1847م ، كانت بعثة كافينياك مكونة من الفيلق الثامن للقناصة (10 ضباط و364 رجلا) والفرقة الثانية للخيالة (ثلاثة ضباط و62 رجلا) ، إضافة الفرق التقنية الخاصة بالآثار والمسح الطبوغرافي ، وفرقة طبية برئاسة الطبيب الجراح فلكس جاكو الذي دوّن حيثيات هذه الرحلة في كتابه "حملة الجنيرال كافينياك".

بدأ كافينياك أولا بقصر عَسْلَة[8] الذي لم يجد فيه مقاومة تذكر[9] ، ثم توجه إلى قصر ثْيُوتْ[10] فوجد القصر خاليا من الأهالي الذين غادروه تجنبا لمواجهة قوات كافينياك التي خربت القصر وأتلفت المؤونة ، بعد تيوت توجهت البعثة إلى قصر مْغْرَارْ التحتاني[11] وبعث قائدها بأربعة رجال إلى سكان القصر يطالبهم بالاستسلام وتقديم فروض الطاعة لفرنسا لكن أهل القصر قتلوا ثلاثة من المبعوثين وأطلقوا سراح الرابع لينقل الخبر لقائده الذي أمر جنوده بتدمير القصر ونهب متاعه وحرق محاصيله الزراعية.

يصف لنا الطبيب فلكس جاكوفي كتابه ؛ همجية ووحشية الجند الفرنسيين الذين عاثوا في القصر فسادا حين يقول: «أمر كافينياك بالهجوم على القصر ، وأطلق يدي جنده لنهب القرية ، وعثرنا على جثث مبعوثينا وعليها آثار السيوف وضربات الخناجر ، وانطلق الجند فظهرت غرائز النهب والحرق والإتلاف الكامنة في نفس الجندي الفرنسي بعد إطلاق

الطيب البوشيخي ، المجاهد أو الشهداء الشيخ بن الطيب البوشيخي البكري (1780-1870م)، ط3، مطبعة أطلال ، وجدة ، 2023 ، ص153.

8- قصر عسلة: قصر صغير يقع على صخرة يتألف من 50 إلى 60 منزلا ، كان موضعا لتخزين الحبوب لسكان البدو الرحل ، حسب التقارير الفرنسية يمكن تجنيدما بين 50 و60 بندقية ، على مقربة من القصر ضريح سيدي أحمد المجدوب. ينظر: Daumas, Le Sahara Algérien études géographiques, statistiques et historiques, sur la région au sud des établissements français en Algérie, Dubos frères, Alger, 1845, p245.

9 - Félix Jacquot, Expédition De Général Cavaignac dans Le Sahara algérien en avril et mai 1847, p142.

10- قصر تيوت:يتكون قصر تيوت من حوالي 100 إلى 150 منزلا ، كان مكانا لتخزين المؤونة لأولاد سيدي الشيخ الغرابة وبقية القبائل البدوية الأخرى. ينظر: .Daumase,op.cit, p248

11- قصر مغرار التحتاني:قصر يتكون من حوالي 250 منزل تقريبا ، بها مسجد ومدرسة ، وواحة من النخيل. ينظر: .Daumas,op.cit, p251

العنان له»[12]، إن هذا التصريح يصور وحشية وهمجية الجند وكيف أن قائدهم سمح لهم بارتكاب أبشع المجازر في حق المدنيين بل شجعهم على ذلك. فكافينياك لم يحد عن طريقة وأسلوب الفرنسيين في التعامل مع الأهالي منذ أن وطئت أقدامهم البلاد.

وقد كانت قصور المنطقة ولا سيما قصر مغرار التحتاني مركزا لتخزين مؤونة أهل القصور والقبائل المجاورة لهم خاصة قبيلة أولاد سيدي الشيخ الغرابة فقد عثر الجند بداخل قصر مغرار التحتاني على مطامير معبئة بالمؤونة والأسلحة واللّوازم التي تحتاجها القبائل، مثل المواد الغذائية المتمثلة في: التمور والشعير وبيض النعام ، إضافة إلى الأغطية والألبسة المنسوجة من الصوف والشعر ؛ كالحياك[13] والخيام والبرانس والزرابي، ناهيك عن الأسلحة التي كانت موجودة هي كذلك مثل: البنادق والسروج والكوابيس[14]، كما كانت تخزن الآلات التي تستخدم في الطبخ ؛ مثل: الأواني المصنوعة من الحلفاء، وأواني الطبخ، والقدور الطينية والحديدية والنحاسية والقصعات الخشبية، إضافة إلى المخطوطات والمجلدات، وقد أتلفها الجند الفرنسيون بهمجية[15].

إن هذه المؤونة واللّوازم المختلفة التي عُثر عليها تؤكد على ثراء وغَناء قبيلة أولاد سيدي الشيخ الغرابة بحيث كل هذه المقتنيات كانت مخبأة لوقت الحاجة والضرورة، وقد نهبها الجند وحتى الضباط كان لهم نصيبهم منها، خاصة ما كان منها نادرا أو غالي الثمن.

ثم توجهت الحملة إلى قصر مغرار الفوقاني[16] أين نشبت بينها وبين السكان معركة غير متكافئة راح ضحيتها حوالي عشرين (20) شهيدا قتلوا أثناء دفاعهم عن قصرهم وأملاكهم.

عادت البعثة إلى قصر تيوت ثانية فوجدت أهله لا يزالون خارجه فأحرق الجنود ما بقي من محاصيله واتلفوا مزارعه، وأثناء تجوالهم في المنطقة اكتشفوا الجدارية الأثرية المعروفة محليا باسم "الحجرة المكتوبة"، التي تحتوي رسومات ونقوش حجرية تعود لأزمنة موغلة في القدم، وتُنبئ بوجود إنسان ما قبل التاريخ في منطقة القصور. وتعد أول اكتشاف أثري في قارة إفريقيا[17].

12- محمد بن الطيب البوشيخي، أولاد سيدي الشيخ الشراقة والغرابة، ط3، مطبعة أطلال، وجدة، 2013، ص271.

13- الحياك: أفرشة وأغطية تصنع من صوف الغنم.

14- الكوابيس: تعني المسدسات.

15- محمد بن الطيب البوشيخي، أولاد...، المرجع السابق، ص272.

16- قصر مغرار الفوقاني: قصر أخذ تسميته من الوادي الذي يعبره، يتشكل من 150 منزلا، تكثر فيه زراعة الخضر وأشجار الفواكه والنخيل. ينظر: Daumas,op.cit, p251.

17- عيسى روشام، المرجع السابق، ص23.

من قصر تيوت توجهت بعثة كافينياك إلى قصر العين الصفراء[18] الذي استبسل سكانه في الدفاع عنه ، ونظرا لقوة الجيش الفرنسي الذي كان يمتلك أسلحة حديثة اضطر أهل القصر إلى الانسحاب من أرض المعركة حفاظا على حياتهم ، فقامت القوات الفرنسية باقتحام القصر والقيام بأعمال تخريبية كعادتها ، وبعده توجهت إلى قصر صفيصيفة ومنها عادت أدراجها إلى سبدو.

سجل الطبيب "فلكس جاكو" الذي رافق حملة كافينياك جل ما لاحظه وشاهده في رحلته هذه حيث قدم دراسة مفصلة عن منطقة الجنوب الغربي الجزائري تمثلت في وصفه لأهم مظاهره الطبيعية من شطوط وسهول ومرتفعات وأودية ومنابع المياه ، كما دون عديد الرسومات الأثرية التي عثر عليها في تيوت ومغرار ، إضافة إلى تقديمه وصف دقيق لقصور الجنوب الوهراني أو الأطلس الكبير كما يسميه ، ودعم كتابه برسومات لتلك القصور التي مر وحل بها وخريطة لمسالك رحلته[19].

3.1- طابور الجنيرال بليسيي (Pelissier)[20]:

بعد بعثة كافينياك حلّت بمنطقة القصور إرسالية أخرى بقيادة الجنيرال بليسيي (Pelissier) سنة 1849م الذي اتبع نفس الطريق الذي سلكه كافينياك. اختار بليسيي شهر أفريل للقيام بحملته مستهدفا إتلاف المحاصيل الزراعية وحرقها كي لا تستفيد منها تلك القبائل الخارجة عن الإدارة الاستعمارية والرافضة الانصياع لها ، فحل أولا بقصر عسلة ، ثم توجه إلى قصر تيوت ، الذي بقي فيه حوالي ثلاثة أيام أفرغ جنوده المخازن وتقاسموا مؤونتها ، ثم قصد قصري مغرار التحتاني والفوقاني حيث قام بأعمال تخريبية بغية الانتقام من السكان تمحورت في اقتلاع أشجار النخيل وإتلاف المحاصيل وهدم المباني ، ومنها توجه صوب قصري العين الصفراء وصفيصيفة على التوالي فخرب مخازنها هي كذلك ، ثم عاد أدراجه إلى المناطق التلية[21].

18- قصر العين الصفراء:أحد أهم قصور المنطقة يتكون من أزيد من 150 منزلا ، تزينها الرمال الذهبية. ينظر: .Daumas,op.cit, p249

19- عيسى روشام ، المرجع السابق ، ص23.

20- بليسي(1794-1864م) جنيرال فرنسي ، تخرج من الكلية الحربية سان سير ، شارك في حروب نابليون في أوروبا ، كما شارك في الحكلة الفرنسية على الجزائر 1830 ، عُيّنَ حاكما على الجزائر سنة 1851م. ينظر: محمد بن الطيب البوشييخي ، المجاهد... ، المرجع السابق ، ص159.

21- عيسى روشام ، المرجع السابق ، ص25.

وتجدر الإشارة إلى أن السكان كانوا يُخْلون القصور ويحتمون بالجبال والأودية أثناء تواجد هذه البعثات العسكرية تجنبا لمواجهتها ورفضا لقبول طاعتها والتعامل مع المحتل ، إذ كانت في حالة عصيان تام ولم تقبل الخضوع والخنوع لفرنسا.

2- مقاومة أولاد سيدي الشيخ الغرابة:

تمثلت في المقاومة التي قادها الفرع الغربي لقبيلة أولاد سيدي الشيخ ممثلة في شخص الشيخ بن الطيّب الذي تقلد مشيخة الزاوية الغربية سنة 1818م[22] ، فبعد وصول أولى جحافل الاستعمار الفرنسي للجنوب الغربي للجزائر نهض بن الطيّب واستنفر القبائل الموالية له معلنا الجهاد ومحاربة الاستعمار الفرنسي الغازي.

1.2- مقاومة الشيخ بن الطيب (1845-1870م):

هو الشيخ بن الطيّب بن محمد بن سليمان أحد أفراد قبيلة أولاد سيدي الشيخ البارزين وزعيم قبيلة أولاد سيدي الشيخ الغرابة ، تنافس مع سي بوبكر بن النعيمي وولده حمزة بن أبو بكر زعيمَي أولاد سيدي الشيخ الشراقة على الزعامة القبلية ،حيث كان كل منهما زعيما على فرعِه (الشراقة أو الغرابة) وهذا تقليد جُبلت عليه القبيلة منذ انقسامها إلى فرعين شرقي وغربي سنة 1765م.

أعلن الشيخ بن الطيّب مشاركته ودعمه للأمير عبد القادر في مقاومته للاستعمار الفرنسي حيث كتب رسالة إلى أهالي قصر الودغير بفجيج يطلب منهم مساندة الأمير ومده بالألغام التي كانت لهم خبرة ودراية بصناعتها[23] ، وأمدّ الأمير بالرجال والمؤونة والسلاح لاسيما أثناء محاصرته للزاوية التيجانية بعين ماضي.

حاولت فرنسا فرض سيطرتها على المناطق الحدودية مع المغرب الأقصى فأبرمت معاهدة لالة مغنية يوم 09 ربيع الأول 1260ه /18 مارس 1845م مع السلطات المغربية من أجل تطويق مقاومة الأمير ، وبسط سيادتها على المنطقة ، ومنع الأمير من الحصول على المساعدات من المغرب ، وبموجب هذه المعاهدة أصبحت السيادة على قصور الجنوب الغربي الجزائري (الجنوب الوهراني) لفرنسا في حين كانت السيادة لقصري "فجيج" و"إيش" للمخزن المغربي ، فقد جاء في البند الخامس من الاتفاقية: «قصور فجيج وأيش لعمالة المغرب ، أما العين الصفراء وصفيصيفة وعسلة وتيوت والشلالة والأبيض وبوسمغون فللعمالة الشرقية (الجزائر)»[24].

22- نفسه ، ص33.

23- عيسى روشام ، المرجع السابق ، ص33.

24- عبد الرحمان بن محمد بن زيدان السجلماسي ، إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس ، تح ، علي عمر ، ج5 ، ط1 ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، 2008 ، ص198.

وبناء على هذه المعاهدة دخلت قبيلة أولاد سيدي الشيخ الغرابة التي يتزعمها الشيخ بن الطيب تحت رعاية السلطان المغربي ، حيث نص البند الرابع على تقسيم القبائل بين الدولتين «فالأعراب الغربية هم المهاية وبني گِيل وأولاد سيدي الشيخ الغرابة وعمور الصحراء وحميان الجنبة ، والأعراب الشرقية هم أولاد سيدي الشيخ الشراقة وكافة حميان من غير الجنبة»[25].

لكن أفراد وعشائر أولاد سيدي الشيخ الغرابة كانوا يتنقلون بحرية بين التراب الجزائري والمغربي ، لأن بنود المعاهدة نفسها لم تمنعهم من ذلك بل أعطتهم حرية التنقل. وسمحت لسلطة كلا الدولتين التصرف في رعاياها وإن كانوا خارج حدودها ،كما تجدر الإشارة إلى أن قبائل الحدود لم تكترث لهذه الاتفاقية ولم تعترف لا بسلطة المغرب ولا بسلطة فرنسا خاصة في المناطق الصحراوية[26] ، وكانت غير معترفة بالحدود وظلت تتنقل بحرية بين الإقليمين.

أما الفرع الشرقي لقبيلة أولاد سيدي الشيخ فقد أصبح تحت الرعاية الفرنسية التي تقربت من شيوخه وتمكنت فرنسا من كسب ولاء زعيمهم سي حمزة بن أبي بكر وعيّنته خليفة على الصحراء سنة 1850م حيث امتدت سلطته ونفوذه من الحدود المغربية غربا حتى ورقلة وما جاورها شرقا[27].

تلقب الشيخ بن الطيّب بأبي الشهداء لمقتل أولاده في الحروب سواء ضد القوات الفرنسية أو ضد القبائل الأخرى في إطار الصراع القبلي بين أولاد سيدي الشيخ الشراقة والغرابة والذي كان الاستعمار الفرنسي يذكي ناره من خلال المكائد والدسائس بين الطرفين.

تُعدّ معركة الشريعة[28] يوم 02 ماي 1845م أولى المواجهات بين الشيخ بن الطيّب زعيم أولاد سيدي الشيخ الغرابة والقوات الفرنسية حيث تصدّى لحملة الجنيرال جيري بتعداد قوامه حوالي خمسمائة فارس (500) وأربعة مئة وخمسون راجل (450) جلهم من قبائل أولاد زياد والرزاينة ودراقة والطرافي وحميان وأولاد جرير ودوي منيع وبني گِيل

25- نفسه ، ص 197.

26- قادة الدين ، الحدود الجزائرية المغربية عبر العصور ، مجلة عصور جديدة ، جامعة وهران ، مج7، ع27 ، أكتوبر2017 ، ص216.

27- بودواية مبخوت ، تاريخ المقاومة الشعبية الجزائرية مقاومة أولاد سيدي الشيخ أنموذجا (1864-1908) ، دار كوكب العلوم للنشر والطباعة والتوزيع ، الجزائر ، 2019 ، ص ص136-137.

28- تقع منطقة الشريعة في بلدية الكراكدة على الحافة الجنوبية من جبل القبر شمال بريزينة ولاية البيض. ينظر: عبد القادر بوطاجين ، المرجع السابق ، ص49.

وغيرهم من القبائل التي انطوت تحت إمرة الشيخ بن الطيّب وكانت تعتبره زعيمها الروحي والسياسي.

كانت معركة الشريعة بداية شرارة المواجهة التي دامت أزيد من نصف قرن من الصراع ، وكان الشيخ بن الطيّب أوّل زعيم يتصدى لفرنسا في الجنوب الوهراني ، إعلاء للجهاد وكلمة الحق ، وتعبيرا منه على رفضه لبنود معاهدة لالة مغنية ورفضه الاستسلام للعدو الغازي الذي بدأت جحافل فرقه تجوب المنطقة تمهيدا لاحتلالها.

لا نملك أرقاما عن المعركة ولا عن عدد القتلى فيها والجرحى من الطرفين لعدم حصولنا على مصادر إلا ما كتبه الفرنسيون أنفسهم عن نتائجها حيث جاء في التقرير الذي أُعِدَّ بعد المعركة: «إنّ مسلّحي أولاد سيدي الشيخ واجهونا في البداية بشجاعة شتّت جموعنا ، لولا قوة نيراننا وصمودنا لأرغمونا على التقهقر»[29]، ومن خلال هذا التقرير نستنتج أن المواجهة لم تكن متكافئة بين الطرفين ، وأن قوات الشيخ بن الطيّب صمدت في وجه الجيش الفرنسي وكبّدته خسائر معتبرة ، وهذا ما يؤكده تصرف السلطات الفرنسية بعد المعركة حيث ضغطت على سلطان المغرب للتدخل ووضع حد لنشاط بن الطيّب على اعتباره رعيّة مغربية بناء على معاهدة لالة مغنية سابقة الذكر.

وفي سنة 1849م عَيَّنَ سُلطان المغرب مولاي عبد الرحمان (1822-1859م) الشيخ بن الطيّب خليفة له على المناطق الجنوبية الشرقية من المغرب الأقصى[30]، فامتثل وتقلد مهامه الجديدة ، ونظرا لنشاطه المتزايد في المنطقة فقد أُجبر ملك المغرب على اعتقال الشيخ بن الطيّب وفرض عليه الإقامة الجبرية بإيعاز من السلطات الفرنسية[31].

إن دخوله تحت إمرة سلطان المغرب الأقصى جاء في إطار الصراع التقليدي المستمر بين فرعي قبيلة أولاد سيدي الشيخ الشراقة والغرابة ؛ فمنصب مثل هذا بإمكانه أن يقوي من زعيم الغرابة ويضمن له ولاء قبائل المنطقة في صراعه مع ابن عمه سي حمزة بن أبي بكر ، إضافة إلى رغبته في كسب ودّ سُلطان المغرب الأقصى طمعا في دعمه وتأييده في حربه ضد فرنسا ، زد على ذلك تفضيله الدخول تحت سلطة سلطان مسلم شريف النسب على التبعية لفرنسا التي هو في حالة حرب معها. وتجدر الإشارة إلى أن سلطان المغرب كان متزوجا من امرأة من أولاد سيدي الشيخ فربطته به علاقة مصاهرة كذلك.

29- محمد بن الطيب البوشيخي ، أولاد ... ، المرجع السابق ، ص267.

30- عيسى روشام ، المرجع السابق ، ص34.

31- عبد القادر بوطاجين ، المرجع السابق ، ص75.

واصل الشيخ بن الطيّب مقاومته للاستعمار الفرنسي وخاض عدة معارك ضده وضد القبائل الموالية له ، فعلى الرغم من إجباره على البقاء في الإقامة الجبرية واعتقال أبنائه لم يتوانَ ولو لحظة في الدفاع عن أرضه ومقدساته.

بعد إطلاق سراحه من فاس عاد الشيخ بن الطيّب وكلُّه عزم على مواصلة المقاومة ضد الاحتلال ومَنْعِ فرنسا من التقدم نحو الصحراء ، إلا أنه وجد صعوبات كبيرة في لمّ شتات القبائل التي أعلنت ولاءها للاستعمار الفرنسي وتبعيتها له ، بل إن بعض القبائل المغربية ناصبت الشيخ بن الطيّب العداء وضيقت عليه الخناق ، فوجد نفسه في شهر أوت سنة 1850م محاصرا ضواحي عين بني مطهر ومهددا من طرف قبائل بني بوزقو في الغرب ، والبرابر في الجنوب ، وحميان في الشرق ، فضاقت مساحة مراعيه وصعب عليه اقتناء المؤونة نظرا لغليان القبائل وانعدام الأمن وكثرة اللُّصوص وقطاع الطرق[32].

إلى جانب القيادة العسكرية كان الشيخ بن الطيّب يتميز بدهاء سياسي استغله في المناورة مع سلطات الاحتلال ، فقد بعث أخاه قدّور بن الطيّب للتفاوض معهم فشرط عليهم منحه منصب خليفة موازي لمنصب سي حمزة بن أبي بكر زعيم أولاد سيدي الشيخ الشراقة ، لكن سلطات الاحتلال رفضت هذا الشرط ، ورفضت كذلك إقامة الشيخ بن الطيّب بين قبائل حميان لتخوفها من ثورته ، واكتفت بتعيين قدور بن الطيّب قائدا لأولاد سيدي الشيخ الغرابة مع السماح لهم بالإقامة بالبيّض[33].

إن المفاوضات التي أجراها الشيخ بن الطيّب بواسطة أخيه قدّور مع سلطات الاحتلال ليست إعلانا للطاعة والولاء لفرنسا بل أملتها الظروف المحيطة به في ذلك الوقت ، فقد تخلّت عنه القبائل التي قاومت معه إثر فرض الإقامة الجبرية عليه بفاس لعدة أشهر بضغط من سلطات الاحتلال على سلطان المغرب ، كما ناصبته القبائل المغربية العداء بتحريض من المخزن المغربي حتى يتخلّى عن المقاومة ويعلن الخضوع والخنوع ، أضف إلى ذلك ؛ كانت مشاوراته مع سلطات الاحتلال محاولة منه لإطلاق سراح أبنائه المسجونين بوجدة ، هذه الحالة المزرية التي كان عليها فرضت عليه التعامل مع الاستعمار ، لكن هذا التعامل كان ظرفيا فقط ، حيث سرعان ما يُلَمْلِمُ جراحه ويعلن ثورته من جديد[34].

وهذا ما أكدته التقارير الفرنسية التي كانت تتوجّس منه خيفة والتي أقرت بأن الشيخ بن الطيب لم يتقرب من سُلطات الاحتلال إلا رغبة في التوسط لدى المخزن المغربي من

32- محمد بن الطيب البوشيخي ، أولاد... ، المرجع السابق ، ص277.

33- عبد القادر بوطاجين ، المرجع السابق ، ص75.

34- عيسى روشام ، المرجع السابق ، ص ص34-35.

أجل إطلاق سراح أبنائه وذويه الرهائن والسجناء بالمغرب[35]،وأنه سوف يستأنف المقاومة من جديد، وهذا ما حدث بالفعل فقد هاجم الشيخ بن الطيب بمعية قبائل الرزاينة وحميان شافع فرقة من فرق الجيش الفرنسي يوم 28 نوفمبر 1853م ، وعادت المنطقة إلى سابق عهدها بالمقاومة.

عرفت مقاومة الشيخ بن الطيب بعض الفتور من سنة 1853إلى غاية 1863 ، وتظاهر بالالتزام والسكون وإن كانت التقارير الفرنسية تقول غير ذلك فقد كانت تتوقع ثورته بين الفينة والأخرى. «أطلق سراحه بشروط ولازم السّكون وإن كان لا يزال يناصبنا العداء ويخلق لنا المشاكل كلما أتيحت له الفرصة»[36].

بعد وفاة السلطان مولاي عبد الرحمان سنة 1859م تربع على العرش ابنه مولاي محمد الرابع (1859-1873م) الذي جدد تعيين الشيخ بن الطيّب خليفة على المناطق الجنوبية الشرقية من البلاد سنة 1863م.

انتهز الشيخ بن الطيّب التعيين الجديد والثقة التي منحها إياه السلطان الجديد فبدأ يراسل القبائل وحرضها على الثورة ضد الفرنسيين ، وقد تدخل لينهي خلافا بين سكان قصور فجيج حول الماء حيث كانت وساطته كفيلة في عقد صلح وإنهاء نزاع دموي محتمل بين سكان هذه القصور ، في هذا الوقت اندلعت ثورة أولاد سيدي الشيخ الشراقة بزعامة سي سليمان بن حمزة 08 أفريل 1864م[37] فاستغل الشيخ بن الطيّب الأحداث الجديدة واقترب من الحدود الجزائرية وواصل تحريضه القبائل على العصيان.

لم ترض السلطات الفرنسية على هذا التعيين واعتبرته مساسا بأمن واستقرار أراضيها ، فقد كتب الضابط "نوال" تقريرا بهذا الصدد: «لما قلد السلطان مولاي محمد سيدي الشيخ بن الطيّب قيادة البدو الموجودين بالحدود الشرقية ، كان واعيا بأن إعطاء هذه المهمة لهذا الشخص بالذات المعروف بعدائه لنا هو موقف يخالف مصالحنا»[38].

من خلال هذا التقرير نكتشف معارضة فرنسا لتعيين الشيخ بن الطيّب خليفة للسلطان ، وبالتالي تخوّفها منه لكونه ألدّ أعدائها في المنطقة ، وقد تدخلت سلطات الاحتلال واحتجت لدي سلطان المغرب لوقف تحركات الشيخ بن الطيّب الذي رفض دعوة السلطان تخوفا من اعتقاله كما حدث سنة 1849م ، كما حرضت بعض القبائل التي

35- محمد بن الطيب البوشيخي ، أولاد... ، المرجع السابق ، ص287.

36- محمد بن الطيب البوشيخي ، أولاد... ، ص280.

37- بودواية مبخوت ، المرجع السابق ، ص148.

38- عيسى روشام ، المرجع السابق ، ص34.

كانت تحت إمرته على التمرد عليه فقد اصطدم مع بعض بطون قبيلة حميان بقيادة لحبيب ولد المبخوت قائد أولاد منصورة ، والمدني ولد أحمد بن موسى قائد أولاد خليف[39].

إن ضغوطات السلطات الاستعمارية على المخزن المغربي أتت أكلها من جديد ،حيث تم اعتقال سي العربي بن الشيخ بن الطيّب في أكتوبر 1864م بوجدة لما كان متوجها رفقة ابنه لشراء الحبوب فأودعا السجن ، فأرسل زعيم الغرابة ابنه سليمان إلى فاس لمقابلة السلطان والتوسط لإطلاق سراح أخيه فتم اعتقاله هو كذلك ، وسجن بفاس. وكانت هذه الاعتقالات خطوة من السلطات الفرنسية ونظيرتها المغربية للضغط على الشيخ بن الطيّب لتوقيف المقاومة والتخلي عن أهدافه النبيلة وعدم اعتراض توغل الجيوش الفرنسية في المنطقة ، لكن ابن الطيّب لم يكترث لهذا وواصل قيادته للقبائل المنضوية تحت رايته رافضا الاستسلام معلنا الجهاد وصَدّ المستعمر الغازي.

خاض أولاد سيدي الشيخ الغرابة بزعامة الشيخ بن الطيّب عدة معارك ضد الاستعمار الفرنسي والقبائل التابعة له نذكر منها ؛ معركة بن حطاب[40] في 26 أفريل 1864م[41] شارك فيها أولاد سيدي الشيخ الشراقة جنبا لجنب مع الغرابة ، ومعركة جبل ڤروز[42]، ومعركة المصارين[43] قرب بوعرفة يوم 31 مارس 1870م وقد أستشهد في هذه المعركة ابنه مولى الفرعة ، إضافة إلى معركة عين الشعير[44] جنوب المغرب الأقصى في 24 أفريل 1870م.

توفي الشيخ بن الطيب يوم 15 جويلية 1870 بمخيمه بوَزْدَاتْ جنوب عين بني مطهر ودفن بقبة جده سيدي الشيخ بفجيج ، وقد جاء في التقرير الفرنسي الذي كُتب بعد وفاته

39- محمد بن الطيب البوشيخي ، أولاد... ، المرجع السابق ، ص282.

40- بن حطاب: هضبة واقعة بين مدينة الرقاصة ومدينة الكاف لحمر لولاية البيض. ينظر: عبد القادر بوطاحين ، المرجع السابق ، ص120.

41- كان يقود الشراقة في هذه المعركة محمد بن حمزة وفي نفس المكان جرت معركة أخرى بقيادة أخيه حمزة بن سليمان انتصر فيها انتصار ساحقا على قوات دي كلولومب سنة 1866م. ينظر:محمد بن الطيب البوشيخي ، أولاد... ، المرجع السابق ، ص ص206-207. عبد القادر بوطاجين ، المرجع السابق ، ص ص120-121.

42- جبل ڤروز: أحد جبال ولاية بشار.

43- المصارين: معذر المصارين منطقة تقع شرق مدينة بوعرفة المغربية. ينظر: محمد بن الطيب البوشيخي ، أولاد... ، المرجع السابق ، ص290.

44- عين الشعير: قصر يقع وسط غابة كثيفة من النخيل والأشجار ، والقصر محاط بسور تعلوه أبراج مراقبة ، وهي حاليا مدينة مغربية على مقربة من الحدود الجزائرية. ينظر: محمد بن الطيب البوشيخي ، المجاهد... ، المرجع السابق ، ص204.

ما يُنْبِئُ أنه كان وراء كل المكائد التي كانت تحاك ضد الوجود الفرنسي في المنطقة: «توفي هذا الشيخ الكبير زعيم الغرابة، الذي كان يقف وراء ضروب المكائد التي أحيكت ضدنا»[45]، توفي عن عمر ناهز التسعين سنة قضى منها حوالي خمس وعشرون سنة في مقاومة الاستعمار الفرنسي، وقد أكدت جل التقارير والمصادر التي تناولت جوانب من شخصيته أنه لم يجتمع في حياته مع الفرنسيين وكل لقاءاته معهم كانت عن طريق أتباعه، وهذا ما يؤكد رفضه التام التعامل مع المستعمر الغازي، وقد سجل لنا التاريخ عدة رجال مقاومة رفضوا الاجتماع مع الفرنسيين مثل الشيخ بوعمامة.

بعد وفاة الشيخ بن الطيب أُطلق سراح أولاده وأحفاده الذين اعتقلهم المخزن المغربي بتحريض من السلطات الاستعمارية ظلما وعدوانا من أجل الضغط عليه لتوقيف المقاومة ،إلا أنه لم يكترث لذلك فقاد حركة الجهاد في الجنوب الوهراني حتى آخر رمق من حياته.

2.2- مقاومة أولاد سيدي الشيخ الغرابة بعد الشيخ بن الطيب (1870-1883):

بعد وفاة الشيخ بن الطيب آلت القيادة إلى أولاده من بعده، لكن في هذه الفترة ظهرت قيادتان لأولاد سيدي الشيخ الغرابة ففي السنوات الأخيرة من حياة الشيخ بن الطيب شب ابن أخيه سليمان بن قدور، وكان شابا شجاعا طموحا مطاعا بين أتباعه، فانفصل عنه بسبب طموحه غير منقطع النظير، فقد كان يراوده حلم توحيد أولاد سيدي الشيخ تحت راية واحدة، وكان يرى في نفسه الأحقّ بالقيادة من غيره نظرا لكفاءته وجرأته، لذا انفصل بجيشه وأتباعه والتحق بمقاومة أولاد سيدي الشيخ الشراقة، ثم انفصل عنهم وحاربهم، كما دخل في طاعة الاستعمار الفرنسي ثم انشقّ عنه ثانية، فقد كان بحق شخصية مثيرة للجدل.

تولى قيادة أولاد سيدي الشيخ الغرابة الحاج العربي بن الشيخ[46]، الذي كان يشغل منصب نائب عامل وجدة على فجيج، تم تعيينه في هذا المنصب بعد إطلاق سراحه من سجن وجدة الذي دخله بإيعاز من السُلطات الاستعمارية.

كانت ترمي فرنسا من وراء إطلاق سراحه إلى تجديد الصراع بين فرعي أولاد سيدي الشيخ الشراقة والغرابة، وإذكاء نار الفتنة بينهما والوقوف في وجه اتحادهما، لذا سعت لدى المخزن المغربي من أجل إطلاق سراح الحاج العربي بن الشيخ وتعيينه خليفة لعامل وجدة على المناطق الجنوبية الشرقية من البلاد في 10 أكتوبر 1867م، تحت شرط تهدئة الأوضاع ومنع القبائل الحدودية من المشاركة في ثورة أولاد سيدي الشيخ الشراقة التي

45- عيسى روشام، المرجع السابق، ص ص35-36.
46- عيسى روشام، المرجع السابق، ص36.

كانت في أوج توهجها ، وقد أبقت السلطات المغربية على ولديه الطيّب وبن سليمان وأخيه سليمان بن الشيخ في السجن للضغط عليه أكثر.

لعب الحاج العربي دورا كبيرا في تعيين قدور بن حمزة قائدا لمقاومة أولاد سيدي الشيخ الشراقة بعد وفاة أخيه أحمد سنة 1869م فقد كلفه أبوه بذلك حيث وصل إلى وادي ڤير وعقد صلحا بين قدور بن حمزة وعمه سي لعلى الزعيم الروحي للمقاومة[47] ، وحضر هذا الصلح أحمد بن عمار بن محمد الحبيب شيخ الطريقة التجانية ، هذا التقارب زاد من وحدة فرعي أولاد سيدي الشيخ حيث اتفق الجميع على توحيد الجهود ضد المستعمر الغاشم ، فكانت معركة قارة الغشوة أو عين ماضي وهي أول معركة يتحد فيها فرعي أولاد سيدي الشيخ مع الطريقة التجانية ، حيث قاتلوا جنبا إلى جنب ، لكن نتائجها كانت وخيمة على الجميع فبعد الهزيمة غير المتوقعة لجيوش أولاد سيدي الشيخ بدأ تبادل التهم بين الطرفين ، فكل طرف كان يُحَمِّلُ الطرف الآخر مسؤولية الهزيمة ، مما أدى إلى ظهور التنافر والشقاق من جديد بين فرعي القبيلة ، وما زاد الطين بلة الهجوم الكاسح الذي شنه سليمان بن قدور الذي شغل منصب آغا البيّض وحميان لدي سلطات الاستعمار ، على مخيم الشراقة بالمرة بوادي ڤير يوم 05 فيفري 1869م حيث قتل معمر بن الجديد ابن عم قدور بن حمزة وسلب الشراقة أموالهم وممتلكاتهم[48].

وتجدر الإشارة إلى أن اتحاد أولاد سيدي الشيخ كلف فرنسا خسائر كبيرة لذا سعت إلى الوقوف في وجه الوحدة من خلال سياسة "فرّق تَسُد" التي انتهجتها منذ دخولها الجزائر 1830م ، ومن بين المعارك التي خاضها أولاد سيدي الشيخ مجتمعين معركة ماقورة يوم 26 مارس 1871م حيث يقول أبو القاسم سعد الله: «ورد الخبر بأن معمر بن الشيخ والحاج العربي (زعيمي الغرابة) سينضمان بقواتها إلى قدور بن حمزة (زعيم الشراقة) بعد أن وصل قدور بن حمزة إلى خنق الحدى ، وأصبح مركز مغنية وسبدو مهددين بالهجوم ، وانتشر التوتر والخوف في كل مكان ، واشتد الشعور بالخطر لدى الضباط والجنود ، وانظم أولاد نهار للثوار وأصبحت سبدو محط أنظارهم للهجوم ، واشتد الخوف أيضا بالسلطات في تلمسان بعد هجوم قدور بن حمزة على رأس الماء وتقدم نحو سيدي

2-تجدر الإشارة إلى أن سي العلا كان يرغب في التواري عن الأنظار ويفضل قيادة العمليات العسكرية على تولي قيادة المقاومة.

48- محمد بن الطيب البوشيخي ، أولاد... ، المرجع السابق ، ص ص313-314.

الجيلالي ، وقد مات من الفرنسيين ضابطان وثلاثة وعشرون جنديا ، وتركوا حوالي 200 قتيل حسب إحصاء فوانو»[49].

يستند سعد الله في نتائج المعركة على ما رواه الفرنسيون الذين كانوا يقزمون من انتصارات الثوار الجزائريين ولا يعطون أرقاما حقيقية ، وما مائتي (200) شهيد الذين سقطوا في المعركة إلا دليل على التضحيات الجسام التي قدمها أولاد سيدي الشيخ دفاعا على الجزائر.

يذكر الأغا المزاري معركة ماقورة كذلك وينوه بالوحدة التي كانت بين فرعي أولاد سيدي الشيخ واتفاقهم على القيام بهجوم موحد على الفرنسيين والدخول إلى التَّل ، إلا أنه اختلط عليه الأمر عندما ذكر أن قيادة الشراقة كانت بزعامة أحمد بن حمزة ، في حين الحقيقة في هذه المرحلة كانت القيادة بيد أخيه قدور لأن أحمد توفي سنة 1869م: «اتفق أولاد سيدي الشيخ الشراقة برئاسة سي أحمد بن حمزة ، والغرابة تحت رئاسة الحاج العربي ولد سيدي الشيخ بن الطيب ، مع نجوع الغرب على الدخول للتل ، من ناحية سبدو للهجوم على الذين في طاعة الدولة ، فخرج إليهم الكولونيل مالويز بمحلته من تلمسان وصمم على قتالهم في كل مكان وزمان ، فكان المصاف بينه وبينهم بمحل يقال له ماقورة ، فألزمهم بالقتال إلى أن أطردهم وكانت تلك الواقعة تعرف بواقعة ماقورة»[50]. لا يذكر المزاري أرقاما عن نتائج المعركة ولا على عدد الشهداء والقتلى فيها ، إلا أنه ومن خلال كلامه يتضح أنها معركة ذات تأثير كبير ، فأولاد سيدي الشيخ دخلوا التل وهاجموا القبائل المتعاونة مع الاستعمار الفرنسي ، مما اضطر الكولونيل مالويز إلى الخروج بجيشه ومحلته لقتالهم.

اتسعت الهوة بين فرعي القبيلة وتلاشت الوحدة بينهما من جديد ، فقد أغار قدور بن حمزة زعيم الشراقة على مخيم الغرابة للثأر للهجوم الذي تعرضت له قبيلته من طرف سليمان بن قدور ، في معركة عُقْلَةِ السِّدْرَة يوم 03 أوت 1871م ، فَقُتِلَ في المعركة من الغرابة الحاج العربي بن الشيخ وأخوه سليمان[51]، مما أدى بمعمر بن الشيخ إلى شحذ الهمم والاستعداد للثأر لأخويه فتوعد قدور بن حمزة وترصد تحركاته للوقيعة به وتباحث

49- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، ط6، دار البصائر للنشر والتوزيع، حسين داي، الجزائر، 2009، ص ص202-203.

50- الأغا بن عودة المزاري ، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر ، تح ، يحيى بوعزيز ، ج2 ، ط1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1990 ، ص 264.

51- محمد بن الطيب البوشيخي ، أولاد... ، المرجع السابق ، ص

مع ابن عمه سليمان بن قدور وخططا معا للهجوم على الشراقة فكانت معركة المنقوب[52] أو الحمادة جنوب البنود يوم 25 ديسمبر 1871م[53]، التي انتصر فيها الغرابة انتصارا كاسحا على الشراقة فقتلوا منهم حوالي مائة وخمسين (150) مقاتل وسلبوهم أمتعتهم وأموالهم.

كانت المعركة هزيمة للجميع شراقة وغرابة ونصرا مبينا لفرنسا، التي ارتاحت لنتائجها وكانت هذه المعركة آخر موقعة بين طرفي القبيلة ونهاية صراع دام حوالي قرن من الزمن.

في الوقت الذي كان فيه معمر بن الشيخ في المعركة هاجمت القوات الفرنسية مخيمه، وقامت بترحيل أفراد من عائلته وذويه إلى فرندة وأفراد آخرين إلى سطيف، وفرضت عليهم الإقامة الجبرية هنالك، وبدأت في مساومته، وإغرائه بالمناصب والأموال من أجل الاستسلام لها مقابل إطلاق سراح أهله وذويه، لكنه لم يكترث لذلك ولم يعلن استسلامه، فواصل المقاومة التي بدأها والده الشيخ بن الطيّب.

نظرا لغياب سلطة فعلية تدير شؤون هذه القبائل فقد كثرت الغارات بينها بحثا على مراتع لقطعانها وغنائم يتقاسمها أفراد القبيلة الغازية فيما بينهم، وظهرت الأحلاف بين مجموعة من القبائل مثل حلف زكدو[54] الذي ضم قبائل دوي منيع وأولاد جرير والعمور وبني گيل والبرابر، والذي كان يثير الخوف والرعب حيثما حل وارتحل، كما نشبت حروب ومعارك جانبية بين القبائل المقاومة للاستعمار الفرنسي والقبائل المنضوية تحت رايته، فقد هاجم معمر بن الشيخ زعيم الغرابة رفقة سليمان بن قدور بعض القبائل المولية للاستعمار بالشريعة جنوب البيض في 11 جوان 1874م، وأخذوا غنائم كثيرة، وأعادوا الكرة مرة أخرى يوم 13 جوان 1874م على قبيلة الطرافي بالشط الشرقي، إلا أن سلطات الاحتلال استنفرت جيشها وأتباعها ولحقت بهم لرد الأسلاب والوقيعة بهم، فالتحم

52- المنقوب: تسمى كذلك بالحمادة أو "حمادة الهكة" كما يطلق عليها سكان المنطقة اليوم، وهي حمادة جنوب البنود ولاية البيض الحالية.

53- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص203.

54- حلف زكدو:حلف ضم العديد من القبائل الصحراوية (دوي منيع، العمور، أولاد جرير وبني گيل)، بلغ تعداده حوالي 4000 مقاتل وسيطر لعدة عقود على المنطقة، وكانت تخشاه جل القبائل وتؤدي له الضرائب السنوية ،تحالف هذا الحلف مع السلطات الفرنسية، إذ وقع معهم معاهدة سلام في 17 جوان 1870م، واتفق الطرفان فيما بعد على القضاء على أولاد سيدي الشيخ، فهاجم حلف زكدو مضارب أولاد سيدي الطيب بن الشيخ سنة 1882م في مكان يسمى زرزف، ولم يكن بالمضارب حينها إلا 18 فارسا جلهم من الشباب فقد تمكنوا من هزيمة زكدو هزيمة نكراء لم تقم لهم قائمة بعدها. ينظر: محمد بن الطيب البوشيخي، أولاد...، المرجع السابق، ص ص353-354.

الجيشان في معركة النْفَيْشْ[55] جنوب جبل المالحة ، فاستشهد حوالي سبع وثلاثون (37) شهيدا من صفوف أولاد سيدي الشيخ كان على رأسهم زعيمهم معمر بن الشيخ ومحمد بن بوعلام من أولاد بودواية ، وقتل من الطرف الآخر الجديد بن زيان قائد الطرافي ، والعربي بن قدور قائد دَرَّاقَة[56].

بعد استشهاد معمر بن الشيخ أصبحت قيادة أولاد سيدي الشيخ الغرابة والقبائل المنضوية تحتها بيد سليمان بن قدور الشخصية المثيرة للجدل من خلال مواقفه المختلفة وغير الثابتة والمتضادة. فطورا تراه يحارب فرنسا ، وطورا يسالمها ويدخل في طاعتها ، وطورا يتحالف مع أولاد سيدي الشيخ الشراقة وطورا يغزوهم ويغنم أموالهم. وأحيانا يدخل في طاعة سلطان المغرب وأحيانا أخرى يتمرد عليه ولا يكترث لأوامره ، وقد وصفته تقارير المخزن المغربي بالفتان وحذرت القبائل من الانضمام إليه.

تمكنت فرنسا من استمالته وعينته باشاغا على البيّض وحميان[57] فقدم لها خدمة جليلة من خلال مهاجمة القبائل ونهب أملاكها ، لكنه سرعان ما دخل في خلاف مع سلطات الاستعمار التي لم ترض عن تحركاته حيث كان لا يكترث لأوامر قادتها العسكريين بل يتصرف على هواه ، فعزلته من منصبه وفرضت عليه الإقامة الجبرية بملاتة ناحية عين تموشنت[58]، لكنه تمكن من الفرار ، وعاد إلى إثارة الفوضى والاضطراب في المنطقة مما جعل فرنسا تتباحث مع سلطان المغرب الأقصى من أجل وضع حد لنشاطه ، فأوكلت هذه المهمة لشيخ الطريقة الوزانية الشيخ عبد السلام بن العربي[59] الذي انتقل رفقة زوجته الإنجليزية شريفة وزان[60] إلى مضارب قدور بن سليمان بعين بني مطهر أين طلب منه

55- النْفَيْشْ: موضع في الجهة الجنوبية من جبل المالحة شرق مدينة النعامة الحالية ، والمكان الذي قتل فيه معمر بن الشيخ معروف لدى ساكنة المنطقة وهم يترددون على زيارته.

56- محمد بن الطيب البوشيخي ، أولاد... ، المرجع السابق ، ص307.

57- محمد بن الطيب البوشيخي ، أولاد... ، المرجع السابق ، ص ص313-314.

58- أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ص203.

5-عبد السلام بن العربي: يعد أحد أبرز شيوخ الطريقة الوزانية تولى مشيختها سنة 1850م ، توسط لوضع حد لثورة سليمان بن قدور الذي كان من مريدي طريقته توفي سنة 1892م. ينظر: محمد العمراني وعبد الغني العمراني ، الجزائر والشرفاء الوزانيون في نهاية القرن التاسع عشر للمستشرق الفرنسي روجي لوتورنو ، مجلة الحوار المتوسطي ، مج10 ، ع02 ، جامعة بلعباس ، الجزائر ، جوان 2019 ، ص ص418-419.

60-إميلي كين (1849-1941): انجليزية الجنسية تزوجت في طنجة من شيخ الطريقة الوزانية ولها منه أولاد ، كتبت مذكرات روت فيها رحلة زوجها إلى مضارب سليمان بن قدور. ينظر: محمد بن الطيب البوشيخي ، أولاد... ، المرجع السابق ، ص316.

الاستسلام ووقف المقاومة ، امتثل لأمر شيخه وسلم سلاحه ووضع حدا لمقاومته مقابل مطالبته لفرنسا إطلاق سراح المعتقلين من قبيلة أولاد سيدي الشيخ والقبائل الأخرى ومنحهم اقطاعات بالمغرب الأقصى وهذا ما تم بالفعل[61] ، وقد نقلت لنا شريفة وزان في مذكراتها رحلتها رفقة زوجها الشيخ عبد السلام الوزاني للقاء سليمان بن قدور بأسلوب مشوق واصفة سليمان بن قدور بأنه: «رجلا ربعة القامة ، غامق السمرة ، صغير العينين حاد النضرات»[62] ، ذو مهابة وكلمته مطاعة لدى أتباعه الذين قدرتهم بحوالي سبعمائة مقاتل[63].

بعد نجاح وساطة شريف وزان استقر سليمان بن قدور بالمغرب فترة من الزمن لكنه سرعان ما غافل الحرس الملكي وعاد إلى الجنوب الغربي للجزائر سنة 1881م[64] في الوقت الذي عرفت فيه المنطقة اندلاع مقاومة الشيخ بوعمامة.

ومن أجل وضع حد لنشاطه نُصبت له مكيدة وطُبقت بإحكام حيث تم اغتياله يوم 19 أوت 1883م لما كان في وليمة غداء بالمغرب الأقصى[65]. قتل سليمان بن قدور عن عمر ناهز الأربعين سنة فقد كان شخصية مثيرة للجدل بحق ومتقلبة من حيث الولاء والعصيان ، ويحتاج لدراسة منفصلة بغية تغطية جوانب عديدة من حياته ومقاومته.

بعد مقتل سليمان بن قدور آلت القادة إلى ابن عمه علال بن الشيخ وتلاشت مقاومة أولاد سيدي الشيخ تدريجيا في فرعها الغربي المتمثل في الشيخ بن الطيّب وأولاده ، وكانت قبيل ذلك اندلعت مقاومة الشيخ بوعمامة فرع أولاد سيدي التاج الذي ينتمي هو الآخر لأولاد سيدي الشيخ الغرابة حيث استمرت مقاومته من سنة 1881م إلى غاية وفاته سنة 1908م ، وتجدر الإشارة هنا إلى أن جل القبائل التي ساندت الشيخ بن الطيب انضوت تحت راية الشيخ بوعمامة.

الخاتمة:

تعد مقاومة أولاد سيدي الشيخ الغرابة من أهم المقاومات الشعبية للاستعمار الفرنسي ، لكنها لم تأخذ النصيب الوافر من الدراسة والبحث نظرا لأن زعماءها أرغمتهم معاهدة لالة مغنية إلى الانتساب للمغرب الأقصى فاعتبروا في نظر البعض مغاربة ، وكان نشاطهم داخل التراب الجزائري الذي اعتبروه موطنا لهم ، رغم إقصائهم بموجب المعاهدة

61-محمد بن الطيب البوشيخي ، أولاد... ، المرجع السابق ، ص ص321-323.

2- إميلي كين ، قصة حياتي ، تر ، حسن الزكري ، منشورات باب الحكمة ، ط1 ، تيطوان ، المغرب ، 2023 ، ص66.

63- نفسه ، ص65.

64- محمد بن الطيب البوشيخي ، أولاد... ، المرجع السابق ، ص337.

65- إميلي كين ، المصدر السابق ، ص51.

سالفة الذكر ، مما جعل العديد من الدارسين يتغاضون عن تناول مقاومتهم وحركتهم الجهادية ضد فرنسا.

أسهم أولاد سيدي الشيخ الغرابة في التصدي للعدوان الفرنسي على الجزائر فبمجرد وصول أولى جحافله لمناطقهم تجمعوا وأعدوا العدة للقضاء عليه ، حيث قاد الشيخ بن الطيّب أولى المعارك في الجنوب الغربي للجزائر.

أقلق زعماء أولاد سيدي الشيخ الغرابة فرنسا وأخّروا تقدمها نحو احتلال الجنوب ، مما جعل السلطات الفرنسية تضغط على سلطان المغرب من أجل وضع حد لنشاطهم ، حيث تعرضوا للاعتقالات وسيقوا إلى السجون المغربية لا لشيء إلا لأنهم قاوموا فرنسا لما أرادت الاستيلاء على أراضيهم.

على الرغم من اعتبار السلطات المغربية أن أولاد سيدي الشيخ الغرابة رعايا مغاربة ، إلا أنهم لم يسلموا من المكائد التي حيكت ضدهم من طرف المخزن المغربي ، فقد تعرضوا للاعتقالات والمضايقات طيلة فترة جهادهم ضد فرنسا وتصدّيهم لعدوانها.

انتهجت فرنسا سياسة التفرقة بين فرعي قبيلة أولاد سيدي الشيخ فقد كانت تستميل طرفا على حساب الطرف الآخر وتغريه بالمناصب والمكاسب ، مما ساهم في تباعد الهوة بين طرفي القبيلة ، وقد نجحت في تأجيج الصراع بينهما الذي أنهك القبيلتين معًا وكان انتصارا لفرنسا وحدها.

إن الفوضى والاضطرابات وحالة الغليان التي كانت تعيشها المنطقة من كثرة الغارات بين القبائل على بعضها البعض حدّت من نشاط أولاد سيدي الشيخ الغرابة وحالت دون تحقيق أهدافهم المنشودة.

كانت مقاومة أولاد سيدي الشيخ الغرابة بداية لانتفاضات أخرى في المنطقة أكثر شهرة تمثلت في مقاومة الفرع الشرقي للقبيلة(1864-1883م)، ومقاومة الشيخ بوعمامة (1881-1908م) والتي تُعد كلها مقاومة واحدة لأن قادتها ينحدرون من نفس القبيلة.

يعتبر سليمان بن قدور الشخصية اللُّغز في قادة أولاد سيدي الشيخ نظرا لمواقفه المتضاربة بين الولاء والعصيان ، والطاعة والتمرّد ، فهو مثير للاستغراب ويحتاج دراسة منفردة مستقبلا.

قائمة المراجع:

-إميلي كين ، قصة حياتي ، تر ، حسن الزكري ، ط1 ، منشورات باب الحكمة ،تيطوان ، المغرب ، 2023.
-الآغا بن عودة المزاري ، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر ، تح ، يحيى بوعزيز ، ج2 ، ط1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1990.
-البوشيخي محمد بن الطيب ، أولاد سيدي الشيخ الشراقة والغرابة ، ط3، مطبعة أطلال ، وجدة ، 2013

-البوشيخي محمد بن الطيب ، المجاهد أو الشهداء الشيخ بن الطيب البوشيخي البكري (1780-1870م) ، ط3 ، مطبعة أطلال ، وجدة ، 2023.
-بوطاجين عبد القادر ، التحولات السياسية والعسكرية جنوب الشط الشرقي وجبال القصور ، 1518-1830 ، ط1 ، دار صبحي للطباعة والنشر والتوزيع ، غرداية ، الجزائر ، 2022.
-حريشة جمال وطالبي علي ، الصحراء الجزائرية في كتابات البعثات الفرنسية بعثة أوجين كافينياك (1847-1848) أنموذجا ، **مجلة الساورة للدراسات الإنسانية والاجتماعية** ، جامعة بشار ، الجزائر ، مج9 ، ع2 ، 2023 ، ص ص08-27.
-خليفة بن عمارة ، تاريخ الجنوب الغربي الجزائري الأعلى ، تر ، بوداود عمير ، دار القدس العربي ، وهران ، 2013.
-الدين قادة ، الحدود الجزائرية المغربية عبر العصور ، **مجلة عصور جديدة** ، جامعة وهران ، مج7 ، ع27 ، أكتوبر2017 ، ص ص203-229.
-روشام عيسى ، مقاومة قصور الجنوب الوهراني من الشيخ بن الطيب إلى محمد ولد علي قائد مقاومة بني سمير(1849-1900) ، منشورات دار الأديب ، الجزائر ، 2018.
-السجلماسي عبد الرحمان بن محمد بن زيدان ، إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس ، تح ، علي عمر ، ج5 ، ط1 ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، 2008.
-سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، ط6، دار البصائر للنشر والتوزيع، حسين داي، الجزائر، 2009.
-العمراني محمد والعمراني عبد الغني ، الجزائر والشرفاء الوزانيون في نهاية القرن التاسع عشر للمستشرق الفرنسي روجي لوتورنو ، **مجلة الحوار المتوسطي** ، مج10 ، ع02 ، جامعة بلعباس ، الجزائر ، جوان 2019) ، ص ص417-446.
-مبخوت بودواية ، تاريخ المقاومة الشعبية الجزائرية مقاومة أولاد سيدي الشيخ أنموذجا (1864-1908) ، دار كوكب العلوم للنشر والطباعة والتوزيع ، الجزائر ، 2019.
- Daumas, Le Sahara Algérien études géographiques, statistiques et historiques, sur la région au sud des établissements français en Algérie, Dubos frères, Alger.
- Félix Jacquot, Expédition De Général Cavaignac dans Le Sahara algérien en avril et mai 1847.